

عندما يصاب وطن بالخرق

د. علي محمد فخرو

ما عاد المشهد العربي السياسي سرياليا فقط، أي غير قابل للفهم، وإنما وصل إلى مرحلة الخرق. لقد فضح، أولا، وجود ذلك الخرق إلى أقصاه تصريح وزير الخارجية الروسي الأخير بضرورة عودة سوريا إلى الجامعة العربية، نعم، المناشدة جاءت من وزير الخارجية الروسي وليست من وزير خارجية عربي. فالخرق لم يصل بعد إلى عقل وزير الخارجية الروسي، الذي لا يزال قادرا على التفكير المنطقي. فهو يرى مندوبي الحكومة السورية يجلسون في كل محفل دولي، بما فيه مجلس الأمن، ويحضرون كل الاجتماعات التي تعقدها هيئة الأمم للنظر في إيجاد حل للمسألة السورية. وهو يرى وفودا برلمانية تذهب إلى سوريا لتطلع على أوضاعها وتجتمع بمسؤوليها. أما المسؤولون العرب الذين يحضرون اجتماعات جامعة الدول العربية فإنهم لا يزالون يحملون الانطباع نفسه الذي كان سائدا منذ خمس سنوات مضت، وهو أن سلطة الحكم في سوريا هي في طريقها للنزوال.

والنتيجة هي أن جامعة الدول العربية، المسؤولة عن حاضر ومستقبل كل جزء من الوطن العربي، تجد نفسها غير قادرة على المساهمة في أي مداولات دولية لإخراج الشعب العربي السوري من محنته ومن الجحيم الذي يعيشه، وذلك بعد أن ارتكبت غلطة إخراج سوريا من الجامعة العربية، كسابقة نظامية خطيرة، وقبل أن تنجلي صورة نتائج الصراعات المتشابكة المعقدة في الداخل السوري. نحن هنا، لا ندافع عن هذه الجهة ولا نقف ضد تلك الجهة، فمثل هذه الأحكام هي من حق ومسؤولية الشعب العربي السوري، ولكن يحزننا أن نرى مبادرة تصحيح قرار عربي تأتي من خارج الوطن العربي، لتبين عجز وشلل الإرادة العربية السياسية المشتركة.

لقد فضح، ثانيا، ذلك الخرق أن محاولات إيقاف الدمار المفجع الذي أصاب مجتمع القطر العربي اليمني دخلت في متاهات الغموض والمناورات الدولية وطغيان مشاعر الخلافات المذهبية والقبلية والتاريخية، بسبب غياب الموقف العربي الموحد الحاض لمصالح وآمال شعب اليمن المعذب المنهك، الذي ما إن يخرج من قبضة مجنون فاسد حتى يدخل في قبضة الجنون الطائفي الأحمق، المستعمل بانتهازية من قبل هذه الجهة الأجنبية الخارجية أو تلك.

يفضح، ثالثاً، ذلك الخرف يومياً، وعلى امتداد عقود، أن خلافاً حول قطعة صحراوية يظل مشتعلًا، من دون أن توجد أي مبادرة عربية لإيصال الطرفين إلى حل يحتضن طموحات وآمال شعوب أقطار المغرب العربي الكبير، بعد أن أوصلت المماحكات والتشنجات هذا الموضوع إلى طريق مسدود.

يفضح، رابعاً، ذلك الخرف ما تتناقله وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي من همسات وتصريحات حول قضية القضايا العربية، قضية فلسطين. بعضها يدعو علناً إلى التطبيع مع العدو الصهيوني، الذي يحتل فلسطين كلها ويستبدل شعبها بأغراب يهود يأتون من كل أصقاع الأرض، الذي يسجن ويقتل ويهشم ويهدم البيوت. وبعضها يدعو إلى التخلي النهائي عن شعب فلسطين العربي، متناغماً مع تصريحات مجرمي الصهيونية في فلسطين المحتلة. ولم لا يحدث ذلك إذا كانت بعض الأنظمة العربية تتعامل مع الكيان الصهيوني وكأنه حكومة عربية في الجامعة العربية؟

يفضح، خامساً، ذلك الخرف أن تنصاع دولة بترولية عربية لإملاءات الخارج وتقبل بأن تنخرط في صراعاتها الدولية، ومن دون أن تتشاور مع شقيقاتها العربيات المنتجة للبترول، لينتهي الأمر بالهبوط المتسارع المذهل لأسعار البترول، ودخول الجميع في دوامة الديون والتفشف والمستقبل المليء بالأخطار. يفضح، سادساً، ذلك الخرف أن هذه الأمة المتخلفة في الاقتصاد والسياسة والثقافة والعلوم والتكنولوجيا، هذه الأمة المهددة بأن تصبح خارج التاريخ وخارج العصر، منشغلة إلى النخاع بصراع فقهي تاريخي طائفي بليد لا يمت بأي صلة إلى القرآن الذي أوحى لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، والذي يكاد أن يحرق الأخضر واليابس، ويكاد أن ينخر المجتمعات ويفسد العلاقات الاجتماعية بين ساكني أرض العرب.

وأخيراً، يفضح خرف هذه الأمة أن تستطيع مجموعات صغيرة من أبنائها إدخال أرض العرب وبقية العالم في دوامة الجهاد التكفيري العنفي، الذي أضر إلى حدود التدمير بسمعة دين الإسلام، وهو الرسالة الوحيدة التي فاخرت هذه الأمة بأنها تحملها للعالم كله.

يستطيع الإنسان أن يذكر العشرات من التصرفات الخرقاء الجاهلة التي تموج بها أرض العرب والتي، شئنا أم أبينا، خللنا أم تعنتنا، تدل على وصول المشهد العربي العام إلى مرحلة الخرف. عندما يخرف إنسان يرسل إلى مصحح لحمايته من نفسه، ولكن ماذا نفعل بأمة مكونة من أربعمئة مليون من البشر؟ ربنا إننا لا نطلب رد قضائك ولكننا نطلب اللطف فيه.